

البنية السردية لسيرة بني هلال

Narrative Structure of the Biography of Bani Hilal

هاجر بلخيري^{1*}¹ جامعة الجزائر _ 2 _ أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، belkhiri.hadjer@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 01 / 07 / 2023 _ تاريخ القبول: 12 / 09 / 2023 _ تاريخ النشر: 31 / 12 / 2023

ملخص:

يتميز الأدب الشعبي بأنه أدب نابع من أعماق المجتمع كونه يقدم تجارب تعبر عن اهتمامات الناس وآمالهم، كما أنه ينقب عن أحوال الشعوب ويبحث في عاداتهم وتقاليدهم وحاجاتهم المادية والمعنوية التي نجدتها في أشكال الأدب الشعبي المتنوعة، وتعدّ السيرة الشعبية شكلا من هذه الأشكال التي استطاعت بما تحويه من أسلوب قصصي فني بارع تجسيد تجارب الحياة التي يخوضها الإنسان بشكل ضمني أو صريح، ولا تكتفي بنقل تجارب الإنسان وإنما تسعى لتقديم حلول مستعينة في ذلك بشخصيات تتميز بالحكمة والعقل.

كلمات مفتاحية: البنية، السرد، الأدب الشعبي، السيرة الهلالية.

Abstract:

Popular literature is characterized as a literature that stems from the depths of society because it provides experiences that express people's interests and hopes. It also prospects for the conditions of peoples and researches

هاجر بلخيري^{*}

their customs, traditions and material and moral needs that we find in the various forms of popular literature. The popular biography is one of these forms that have been able to embody the experiences of human life implicitly or explicitly.

Keywords: Structure, Narrative, Popular Literature, Crescent Biography.

1. مقدمة:

يتسم الأدب الشعبي بأنه أدب اجتماعي لأنه يقدم تجارب تعبر عن الواقع المعاش، كما أنه يطرح اهتمامات الناس والآمال التي يطمحون إليها، ويبحث عن أحوال الشعوب ويكشف عن عاداتهم وتقاليدهم وحاجاتهم المادية والمعنوية التي نجدها في أشكال الأدب الشعبي المتنوعة.

تعدّ السيرة الشعبية نوعاً من الأدب الشعبي، التي استطاعت ببنيتها بما تحويه من أسلوب قصصي في بارع مقارعة الفنون الأدبية السردية كالقصة والمقامة والرواية، فهي سيرة في قالب قصة تجسد لنا تجارب الحياة التي يتعرض لها الإنسان بشكل مضمّر أو صريح، ولا تقف عند ذلك وإنما تسعى لتقدم حلول مستعينة في ذلك بشخصيات تتسم بالحكمة والعقل، فهي وعاء حفظ فيه الإنسان خلاصة تجاربه وحكمه.

وتعدّ السيرة الهلالية من أهم السير المتوارثة جيلاً عن جيل في الوطن العربي عموماً والجزائر خصوصاً وفي الشرق الجزائري تحديداً، فهي تحكي قصة قبائلهم حسب رواية تترجم بين التاريخ والخيال، بين الحقيقة والعجيب، بين الأصلي والزواج المذهبي، إذ أنّها تحكي عن أبطال يتصفون بالشجاعة والإقدام وحده الذكاء ودهاء الفطنة، إضافة إلى أنّها غنية بالمتعة الفنية والإبداعية التي تأخذ المتلقي إلى فضاء يملؤه الجد والهزل والحكمة والدهاء وروعة الأساليب.

على هذا الأساس يمكننا طرح الإشكالية التالية: فيم تتمثل البنية السردية لسيرة بني هلال

الشعبية؟

من هذه الإشكالية نخرج إلى أسئلة فرعية متمثلة في:

— ما المقصود بالسيرة الشعبية عند الإنسان الشعبي؟

— كيف نشأت السيرة الهلالية؟

— ما مضمون السيرة وفيما تمثلت خصائصها؟

— كيف بُني السرد في سيرة بني هلال الشعبية؟

ولحلّ هذه الإشكالية سننعمد على المنهج التاريخي والاجتماعي لتتبع مراحل تطوّر السيرة الهلالية منذ نشأتها، أما الاجتماعي سننعمد عليه لدراسة المجتمع الذي تناول هذه السيرة قصد بيان التأثير والتأثير الواقع بينهما مع الاعتماد على آليات أخرى كالسرد والتحليل والوصف. والهدف من هذه الدراسة بيان أنّ السيرة الشعبيّة في بنيتها التكوينية قريبة من بنية القصة والرواية، إضافة إلى ذلك إبراز العلاقة الوطيدة بين الأدب والمجتمع، وبيان أنّ الأدب هو في أغلبه محاكاة للواقع الاجتماعي.

2. مفهوم السيرة الشعبية:

1.2 لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور: « سار بهم سيرة حسنة وسيّر السيرة: حدّث أحاديث الأولين »¹ فهي تعني الحديث.

وقام الباحث عبد الله إبراهيم بذكر كلّ المعاني اللغوية للسيرة، فيرى أنّ لفظ السيرة يُحيلنا من حيث الدلالة إلى الطريقة، وهذه الأخيرة ترتبط بالسنة.

والسيرة أيضا هي الطريقة المحمودة المستقيمة، وتدلّ أيضا على الحديث فيقال: حدّث أحاديث الأولين، وهنا تعطي معنيين؛ الأول: تضمّن اللفظ معنى الخبر، والثاني: الإشارة إلى قدم مرويات السيرة.²

2.2 اصطلاحا:

وضع هذا المصطلح في النصف الأوّل من القرن العشرين، ويُقصد به مجموعة من القصص الطويلة التي رواها رواة مرشدون بساحات المدن العربية الكبرى في المساجد والأرياف قبل أن تخرجها المصادر الحديثة.

وتتسمي السيرة الشعبية إلى الأدب الشعبي لأنّها مجهولة المؤلف وخاضعة لعدّة روايات ومتداولة باستمرار عبر الزمن، ويعتليها عبر هذا الزمن التّغيير والتّجديد والإضافة، وقد يترتب على ذلك نسخ عديدة للسيرة الشعبية الواحدة تختلف ما بينها اختلافا كبيرا على نحو ما يظهر في السيرة الهلالية.³

يعرف الباحث " مخطوط كحوال" السيرة بقوله: « هي ترجمة مطولة تنفرد بمصنف على حدة، وتختلف عن الترجمة في كون حجمها أطول وأوسع بكثير عن الترجمة، وأول ما استعملت لفظة "السيرة" كانت في سيرة □ قد عرف كتابها بأصحاب السير»⁴.

أما السيرة الشعبية: هي قصة طويلة تضارع الرواية في عصرنا الحالي — من حيث الطول — وتشبه ديوان العرب من حيث الموضوع، تقص بطولة شخصية شعبية تاريخية معروفة مثلما هو الحال بالنسبة لسيرة عنتر، أو تحكي سيرة قبلية معروفة أو شعب معين مثلما الحال بالنسبة إلى سيرة بني هلال، لكنها تتجاوز التاريخ الواقعي إلى الخيال الشعبي.

ويعرفها الباحث "حسين عبد الحميد" فيقول: هي « حكاية شعبية وملحمة طويلة إذ ذكر الرحالة الغربيون الذين وفدوا إلى مصر والعالم الغربي إنهم شاهدوا اهتمام الجماهير بنمط من الحكايات يستغرق إعداد الواحدة منها إلى أسابيع طويلة وموضوعها البطولة والفروسية وتدور حول التاريخ واقعي لصاحبها»⁵.

والسيرة الشعبية ليست مجرد قصة حياة بطل، وإنما الهدف الرئيسي هو التغني بها وتمجيدها نظرا لالتفاف الأمة حول هذا البطل بعد تحقيقه لآمالها⁶، فهي تدخل ضمن مجال الأدب والتاريخ، أدب لأنها فن من فنون النثر الأدبي ذات خصائص فنية مثلها مثل القصة أو المقامة أو الرواية... الخ، وتاريخ لأنها تعبر عن حياة فرد له قيمة ومنزلة عالية في مجتمعه فهي في الوقت نفسه تعبر عن حياة المجتمع الذي عاش فيه البطل وأثر وتأثر به.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن التاريخ دعامة أساسية في تركيبية السيرة الشعبية، ومع ذلك ترى الباحثة "ثناء الوجود" أن السيرة الشعبية أقرب إلى الأدب منه إلى التاريخ لأنها لا تعتمد على وثائق ثابتة ولا تحتاج إلى التدقيق والتّمحيص فيها ومقابلتها بغيرها⁷.

3. نشأة سيرة بني هلال ومفهومها:

شكلت السيرة الشعبية — التي تعتبر شكلا من أشكال الأدب البطولي — طورا جديدا من نضج الإنسان الشعبي، فبعد أن كانت البطولة للآلهة و أنصاف الآلهة أراد الإنسان أن يأخذ تلك القوى الخارقة ويوظفها في حكايتها عن طريق الخيال فهي تفوق عقله، فيرى عبد الحميد بورايو⁸ أن البشر لم يقفوا ساكنين أمام هذا الصراع بل وقفوا إلى جانب القوة التي تعود عليهم بالخير والكسب، وفي مقابل ذلك كانت القوى المضادة التي لا تقدم للإنسان إلا الشر وما ينتج منه، فكان هناك جناحين الخير والشر،

تجسد في الأساطير القديمة التي كانت تحمل شارة البطولة الآلهة، ليتخلص الأدب عبر الزمن من هذه الأساطير وتنتقل البطولة إلى الإنسان فيحمل رايته وأصبحت تمثل الواقع الحقيقي عند الكثير كسيرة نبينا محمد □ والسيرة الهلالية وسير عنتر بن شداد والزير سالم... الخ.

أمّا نشأة سيرة بني هلال فيحدّد بدايتها في "نجد العديّة" بعد وفاة الزير سالم إذ « يقودنا الزاوي في سيرة بني هلال إلى نجد العديّة، في فترة ما بعد وفاة الزير أبي ليلى المهلهل، إذ يعود بنا إلى نشأة بني هلال، ويقف بالتفصيل عند أنسابها، مؤكدا أنّها من أشرف العرب، ثمّ يربطها في علاقة تبدو عابرة مع النبي المختار □، و لكنّها مهمة في مصير القبيلة »⁹.

كما يوضح الزاوي الأماكن التي تواجدت فيها فهي « تنتقل بنا _ السيرة _ إلى ما تشهده القبيلة من حالات الاستقرار منها عهد المنذر، وكيف تواجه القبيلة حروبا ومواجهات شتى يتسبب طموح أمرائها في بعض منها وتدفعها الحماية إلى شطر منها، و تضطره الحاجة إلى بعضها الآخر »¹⁰، فالزاوي يقدم لنا في روايته أدق التفاصيل وهذا يعني أنّه قد يكون من أهل القبيلة وأمرائها، ويزينا كيف تنتقل القبيلة رفقة جيوشها وقادتها في أرجاء الجزيرة العربية، ثمّ يتعرض إلى الحروب التي تقودها والمواجهات التي تعريها في مسيرتها لتحقيق طموح أمرائها، ويشير إلى مسيرتها التي عرفتها في عدّة بلدان بدءا ببلاد السند، وبلاد الروم، مروراً بالشام ثمّ رحيلها إلى شمال إفريقيا، وأماكن أخرى قد لا تطوّرها أقدامنا¹¹.

فالسيرة الشعبية عموماً وسيرة بني هلال خصوصاً تبقى حيّة وفي الدّأكرة ما دامت مستمرة وحاضرة في أذهان الشعوب، فأبطال السيرة وأمرائها لا يزالون متواجدين على ألسنة الرّواة وهم يتذكروهم أينما حلوا وارتحلوا ولكلّ واحد منهم سمات تميزه عن الآخر، وستعرف عليهم من خلال آرائهم وبعض خصائصهم ومدى مساهمتهم في حياة القبيلة، وتأثيرهم عليها.

أمّا ظهورها في الجزائر فيحدثنا عنه الباحث عبد الحميد بورايو فيقول: « عرفت مناطق القطر الجزائري التي استقرت فيها قبائل بني هلال منذ القرن الحادي عشر ميلادي السيرة الهلالية، وما زالت ذاكرة مجتمع القص تحتفظ بذكرى أولئك الرّواة الذين يتحولون في ليالي الصّيف، ويتحلّق حولهم سكان القرى ومضارب الخيام لينشدوا قصصاً تتعلّق بهجرة الهلاليين من المشرق إلى المغرب، واستقرارهم بشمال إفريقيا »¹².

إذا بحثنا في تاريخ تواجد بني هلال في الجزائر وفي منطقة الشرق الجزائري بالتحديد فإننا نجد جل الدّراسات التاريخية تثبت تواجد الهلاليين في الجزائر لذلك وجب علينا أن نعرض على العوامل والأشياء التي

تغيرت في تلك القبيلة والظروف التي خضعت لها بعد نزوحها للجزائر وذلك لما لها دخل على التغييرات في متن تلك السيرة والتالي تفصيل لذلك: تقدم الهلاليون وأحلافهم نحو الجزائر ودخلوها من ثلاث جهات الأولى جهة السواحل والثانية الهضاب العليا والثالثة الصحراء، أما الجهة التي تهمنا هي الجهة الثانية أي الهضاب العليا ما بين الأطلسين التلي والصحراوي حيث الحكومة الحمادية ثابتة القدم تقدموا إليها من نواحي الأوراس وانتهوا أيام الإدريسي إلى وادي الساحل إلى البيان¹³.

4. تعريف السيرة الهلالية:

السيرة الهلالية هي جزء مهم من السيرة الشعبية العربية وهي عبارة عن ملحمة طويلة تغطي

مرحلة تاريخية من حياة بني هلال المعروفة بالهجرة والترحال، فهي تقودنا من نجد العديّة موطن نشأتها إلى غاية الغرب الإسلامي أي استقرت، وتعرفنا بنشأة القبيلة وأهم نشاطاتها الحيوية ومغامراتها. فهي تقودنا من نجد العديّة هذا الموطن الأول لأبناء هلال بن عامر إلى تغريتهم الكبرى واستقرارهم النهائي في الغرب وتعرفنا بنشأة القبيلة ثمّ نشاطها وحيويتها ومغامراتها ثمّ بمصيره من الشرق إلى الغرب حيث تنتهي القصة باستيطان أبطالها عليه¹⁴.

وهي قصة حركة دائمة تدفع أبطالها إلى الأمام من خلال مجازفة عجيبة وهائلة يسودها القتال والحرب التي تشيب رؤوس الأطفال والنهب والسلب والاستئثار على ثروات هائلة والاستيلاء على بلدان عظيمة والزواج بينات الملوك أجمل من بدر تمام والاحتفال بالنصر والزواج في الغبطة والسرور والابتهاج أي نصر الهلالية وزواج شبابها فقد فضلت السيرة بعض الأبطال على غيرهم من فرسانها الصناديد لأنهم يمثلون الأشخاص البارزة في قبيلتهم العربية الأصلية¹⁵.

فتصفهم من خلال نشأتهم النادرة وتكوينهم الخارق ومنتوجاتهم المجيدة التي أدخلتهم في ميدان البطولة فأصبحت أسماءهم خالدة في ذكر الجميع أبو زيد الهلالي ودياب بن غانم وحسن بن سرحان سلطان بني هلال والجازية رمز المرأة البدوية بجمالها الفتان وذكائها الحاد وشجاعتها الفائقة.

فإن هؤلاء الأبطال هم الذين يقودون سرد الحوادث القصصية للسيرة فيعملون دائما وأبدا على نجاح القبيلة معتمدين على العصبية القبيلة التي تربط بليتهم رغم المنازعات الداخلية التي تزقهم من حين إلى آخر فانطلاقا منهم تنبسط السيرة في تطور مثمر نتيجة لتماسكهم القبلي الذي يجعلهم يدا واحدة في السراء والضراء فوحدتهم هذه تؤثر على الانتصار الدائم على أعدائهم المختلفين¹⁶.

فالسيرة الهلالية كما يمكن للقارئ أن يلاحظ بكل سهولة ترافق التاريخ في خطوطها العريضة لكنّها تركت العنان للخيال على مر الزمان بيدع ويخترع إلى أن أصبحت السيرة تسجل لنا التاريخ وجذبة في آن واحد تبث في الأنفس الدهشة والإعجاب وتجعلنا نعيش أحداثها ونتفاعل مع أبطالها كما تبرهن لنا السيرة من خلال مغامرات أبطالها أنّهم أجداد لأغلب أبناء وطننا وهم يتحركون في سيرتهم المذهلة بين الأسطورة والتاريخ¹⁷.

5. مضمون السيرة الهلالية وخصائصها في الشرق الجزائري:

ككل النصوص الأدبية تتميز السيرة الهلالية بسلاسة أفكارها وترتيب أجزائها، كذلك توفر جميع عناصرها وللعوض أكثر في نص السيرة وجب علينا التعرف على تلك المضامين والوقوف على بعض الخصائص التي تخصها فيما يلي:

قد امتزج الواقع بالخيال في سيرة بني هلال، وأصبح كلاما متجانسا يشكل لنا وحدة متكاملة يخدم فيها الخيال أو الحقيقة والعكس صحيح، ولكن كان لازما علينا تحديد مواطن وعناصر الحقيقة وفصلها عن عناصر الخيال التي كانت موجودة في حلة متميزة يحصرها إبداع من كل جوانبها.

5_1 عناصر الحقيقة والخيال:

أ/ عناصر الحقيقة:

إنّ الحقيقة الأولى التي نستنتجها من الروايتين أنّ شخصياتهما حقيقية ولم تكن افتراضية وأنّ حياتهم كانت عبارة رحيل وترحال ومواجهات على الكأ والماء وظروف المعيشة الجيدة ومحاولة لإثبات شرف النسب و الأصل الكريم المتوارث عبر أجيال وهذا ما نجده عند روزلين ليلي قريش في كتابه تغريبة بنو هلال، وقد احتوت السيرة على مقومات الحياة الطبيعية مثل سائر البشر فكانوا يقطنون الخيم ويركبون الخيل ويؤسسون حياتهم بكل عفوية وبساطة وكمثال عن تلك القصة: ذياب الهلالي.

ب/ عناصر الخيال:

يتخلل السيرة الهلالية الخيال بجميع مراحلها فإنّ لم يكن خيالا ناميا وناضجا فهو أولي، وهذا ما نجده خصوصا في قصة رداح في قول الراويان بقايا شعر الرّداح "أسكر أربعين فارسا"¹⁸ وأيضا في قطع أربعين يوما في ليلة واحدة، من طرف الفارس الهلالي إضافة إلى حديثه معه وتشاورهما وهذا ضرب من الخيال.

ونضيف إلى هذه الأمثلة أمثلة أخرى على سبيل الذكر لا الحصر تكلم الذئب مع الراعي، تفصيل التمر ونزع النوى وعندما وضع أحمد الهلالي يده عليه رجح كما كان بعد تقابل رداح وأحمد الهلالي... الخ. ومن هذا نعرف أنّ الإنسان الشعبي خياله فاق الحدود المعقولة وقدرته على التعبير والوصف والتفسير تجعل المتبع لإبداعاتهم يقف حائراً أمام هذا الخيال المبدع. إنّها فعلاً لرائعة خلقت في الإنسان الذي يملك قدرة عجيبة في توظيف الخيال في كل مناسبة.

5_2 الجماعة:

ينتمي كل إنسان إلى جماعة معينة، ويشعر بهذا الانتماء، ويتكيف تبعاً لانتماؤه، وقد قيل "الإنسان مدني بالطبع"، والإنسان اجتماعي بالطبع"، ويمكن أن يقال أنّ "الإنسان منتم بالطبع" أيضاً، فالفرد في المجتمع قد ينتمي لأسرة، أو ينتمي لقريته، وقد يتحول هذا الانتماء إلى نوع من العصبية أحياناً، إنّ هذا الانتماء، وهذه العصبية قد تعكس بأصدق الصور في الأدب الشعبي وهذه الخاصية تعتبر المقوم الأساس للأدب الشعبي، فكون هذا الأدب صادر عن الجماعة الشعبية يؤثر في طبيعته وتركيبه وخصائصه المميزة. وجماعية الأدب الشعبي تباين فردية الإنتاج الأدبي الذي يؤلفه أفراد يعبرون عن ذواتهم ورؤاهم الخاصة¹⁹، السيرة الهلالية تمتاز بهذه الخاصية إذ أنّ البطل في القصة الأولى آثر بنفسه على الجماعة فكلّ الصراعات القائمة فيها تكون من أجل القبيلة وبالتالي من أجل الجماعة.

5_3 الشفهية:

تتم عمليات إنشاء نصوص الأدب الشعبي وخصوصاً نص السيرة عن طريق روايتها وحفظها بالطريق الشفهي، دون اعتماد على التدوين والكتابة في معظم الحالات التقليدية. والمشافهة، بالنسبة للأدب الشعبي، ليست مجرد وسيلة لتناقل النصوص، ولا هي مجرد قناة تمرّ منها النصوص وتعبر، بل هي عامل مؤثر في تكوين النصوص وصياغتها، تسمها بميسمها. ومن ثمّ برزت من بين الخصائص الأسلوبية لنصوص الأدب الشعبي خصائص بعينها تتوافق مع شفهيته؛ مثل شيوع التكرار، والميل إلى تحوير الكلمات واللعب بها، والاستقلال التسيبي لوحداث هيكلها البنائي، واعتماد منطق التصوير الفني فيها على التراوح بين الإلماح والتفصيل، والارتكاز على الإشارات المختزلة سواء إلى التصورات المرجعية أو إلى المظاهر الواقعية²⁰، وهي سمة من السمات البارزة في نص السيرة فتناقضها من راو إلى آخر دليل على شفاهيتها، فالسيرة الهلالية تعتبر من الآداب الشعبية ذات الطابع الشفهي.

5_4 العراقة:

لا يصبح النص الأدب الشعبي شعبيا بالمعنى الدقيق، إلا إذا تبنته الجماعة الشعبية. ولن يتأتى هذا التأييد إلا بعد أن يتم تقبل النص وتداوله. وخلال ذلك يتم تعديله وصقله وفق تقاليد الجماعة الشعبية وذائقتها ورؤاها. وهذه العمليات تحتاج إلى قدر من الزمن إلى أن يستوي (ينضج) النص متفاعلا مع معايير الجماعة وقيمها. وبسبب هذا اشترط دارسو الأدب الشعبي مرور زمن مناسب على تداول النص، وتواتر أدائه، لكي يطمئنوا إلى تمام سيرورته، ويتثبتوا من تبني الجماعة الشعبية له²¹.

تعتبر السيرة الهلالية ديوان الجماعة الشعبية، وهي سجل منجزاتها الثقافية وحصيلة خبرتها ومعارفها، فإنّ مكوناتها تحفل بأصداء ما اكتنته الذاكرة الجمعية، وما بقي ساريا من حصيلة هذه الخبرة المتراكمة، وما ظل متصل الحضور من منجزاتها. ومن هنا نفهم السبب في وفرة ما تحمله السيرة الهلالية من إشارات إلى الرصيد الثقافي للجماعة، فضلا عن وفرة العناصر والمكونات التي تستمر في الوجود وتواصل حضورها عبر الزمن.

5_5 البداية و النهاية:

لقد كنا نتوقع أن يتفق الأبطال الذين قطعوا كل تلك المسافة وواجهوا كل تلك الأخطار، ودافع بعضهم عن البعض باستماتة، كنا نتوقع أن يجمعهم الوطن الجديد، فتكون نهايتهم مشرقة بملأها الاحتفال بتحقيق الرغبة والنشوة بسبب حصول المراد، وأما أن تكون النهاية بهذا الشكل فذاك ما لم نتوقعه، ولعلّ هذا ما يشكل خصوصية السيرة ويميزها²².

ففي قصة "ذياب الهلالي" كانت النهاية كما توقعها الجميع بفوز "ذياب الهلالي" على أعدائه واحتلاله سلم العرش. أما في القصة الثانية فكانت النهاية غير متوقعة وهي بالفعل نهاية مؤلمة بانتحار "رداح المصون" الذي كان سببه الكلمات الجارحة التي سمعتها من عند أحمد الهلالي، بعد أن تحدى من أجلها الطبيعة والبشر ودفع الغالي والتفيس للحصول عليها، لم يكن أحد من المتلقين أن تكون هذه النهاية مؤسفة هكذا.

فبإسقاط تلك الخصائص على سيرة بني هلال نجد أنّ السيرة الهلالية قد احتوت تقريبا على كل تلك العناصر سواء من شخصيات أو من الحيز الزمني و المكاني أو تسلسل تلك الأحداث من بدايتها إلى نهايتها.

هذا إضافة إلى خصائص فنية أخرى، كالسجع في القصة الأولى مثل "لي ما صفاوهش كفوفنا يصفواوه سيوفنا" "سلا كنا ما كانش يهرب غير يسلس السيف ويضرب" والثانية "فرغ قلبي مني كيما فرغت التمر من نواه كان" "فرس يهيل ويميل ويخلي القلب".

إضافة إلى خضوعها لخصائص الأدب الشعبي من شفاهية ومجهولية للمؤلف والجماعية.

6_ السرد في السيرة الهلالية:

6_1 الشخصيات:

تتكون شخصيات السيرة تدريجياً، وتكتسب مهاراتها، وخصائصها مع توالي الأحداث فشخصية "ذياب" مثلاً، نجدها - ضمن قصص السيرة - من ميلادها إلى تعلمها إلى بطولاتها، وهكذا لا تقدم السيرة، مبدئياً أغلب شخصياتها مكتملة التكوين، وإنما تتشكل على مدار القصص وبفعل تأثير الأحداث والأزمات وظروف أخرى، ونجد في سيرة بني هلال وجود كثير من الشخصيات مثال ذلك **غانم الهلالي**: وهو سلطان وصاحب القبيلة يتميز بالحكمة والدكاء وظفر النعام، تميزت بسداجتها وقلة حيلتها وبمقابل هذا كانت صاحبة الحظ الوافر لزواجها بالسلطان وأما حامي الحمى و سيد القبيلة ذياب الهلالي تميز بالقوة الفكرية والبدنية من دهاء وحكمة وشجاعة، جازية سيدة القبيلة تميز بالدهاء والفتنة وقوة الشخصية، الزناتي وشريف بن هاشم أعداء القبيلة يتميزون بالحيلة والمكر، أحمد الهلالي تميز بالقوة والشجاعة والاندفاع، العجوز الستوت تميزت بالمكر والدهاء والحيلة، رداح تميز بالحسن والجمال وعزة النفس، ابن عم رداح تميزت بالكرم والطيبة، إذ أنّ هذه الشخصيات تمثل أساس تسلسل الأحداث فغياب أحدها يعني إخلال بالسيرة.

6_2 الفضاء:

السيرة مسيرة في الفضاء ولذلك لهذا الأخير أهمية كبرى في بنائها، وقبل النظر في الأهمية البنوية والسيميائية للفضاء نلاحظ من خلال القراءة الأولى أنّ القبيلة توجه المخاطر وتحوض الصراعات من أجل الحفاظ أو اكتساب فضاء وجودها وبقائها وسيادتها وأمنها ولذلك لا تلبث القبيلة أن تواجه خطراً في موطنها "نجد" حتى تغادره إلى فضاء تعتقد أنه أكثر أمناً و أوفر حظاً²³ بالعودة إلى نص السيرة نجد أنّ الفضاء الذي سارت به أحداث السيرة إذ إنّنا لا نلمس فضاء ملموساً مثال ذلك عند ولادة أم ذياب ذكر أنّ الذئاب كانت ملتفة بها، هنا القارئ وحده يكتشف بفهمه أنّ المكان هو الغابة أو يظهر الفضاء

بصريح العبارة كلفظ الصّحراء فهي واضحة كما نجد أنّ القبيلة لا تلبث تبقى في مكان واحد مثال ذلك الرحلة يا الجزائرية.

6_3 الأحداث:

والسيرة إضافة إلى ذلك لا تخلو على مدار قصصها وحكاياتها من الأحداث، وهذه الأحداث جاءت على شكل صراعات مريّة تشيب لها رؤوس الأطفال عادة ما تكون هذه الصراعات بدافع الرّغبة في البقاء، وعادة ما تنتهي بالنصر والاحتفال، غير أنّ الملفت هو اختلاف مواضع الصّراع وأشكال النّصر ونتائج الحرب²⁴.

وأكبر الصّراعات التي كانت في نص السيرة كانت بين "شريف بن هاشم" و"ذياب"، وبين "العجوز السنوت" و"أحمد الهاللي".

7. خاتمة:

لقد نمت السيرة الهلالية في بيئة كثرت الأحداث فيها وتشعبت فيها الفروع وتقاطعت فيها الطّرق، بين أناس تميّزهم بساطتهم ويسر حالهم، لكن رغم بساطة فكرهم وعيشهم كانت حالتهم مليئة بالمغامرات والقصص والحكايات المثيرة والشّيقة، ولعلّ أهم صفاتهم هي البطولة والشّجاعة والدّكاء وحسن التدبير والخيال الواسع والفكر النّير، وهذا ما جعل من السيرة الهلالية مرآة عاكسة لهذا الرّحم الهائل من الأحداث والمعاني التي اتّخذ فيها الخيال مع الحقيقة والبساطة مع الرّقي والفروسية مع الرّومانسية، فكانت رائعة من روائع الأدب الشّعبي، تعبر لنا عن مدى اتساع خيال الإنسان الشّعبي عموماً والإنسان الجزائري الشرقي خصوصاً، وقد اجتمعت عوامل كثيرة ساعدت على انتشار السيرة الهلالية في الشّرق الجزائري، وخصوصاً إبداع الرّواة وما يتصفون به في طرق الإلقاء وكيفية اقتناء صيغ الاستهلال وصيغ الختام واختيار الزّمان والمكان الملائمين لسرد السيرة حيث يكون النّاس مجتمعون من الفئات والطّبقات تغمرهم السعادة والابتهاج.

ومن بين النّتائج المتوصل إليها:

— إنّ السيرة الهلالية تخضع وبشكل عفوي للبيئة التي أنشأتها، فعندما كانت بيئة مجتمع متمسكة بالتراث المادي انعكس ذلك إيجاباً على بقاء نص السيرة الهلالية فكانت تروى في الليالي الطّوال، وعندما استغنى

عن مظاهر تراثه ضيع جزءا من نص السيرة الهلالية ولم تعد إلا رواسب يكاد يصيبها الصدا في ذاكرة الزاوي.

— هذه الرواسب أصّر حملة تراثنا على الاحتفاظ بها لآخر رمق، فكم كثر أولئك الرواة الذين حملوا معهم موروثا ثقافيا ضخما دون أن يدغدغ ذاكرتهم أحد، ذلك الإصرار نابع من قناعة معرفة الذات وتقديرها ومن إحساس عميق بمسؤولية الواجب تجاه الهوية. فكان هذا من أجمل الدروس التي تعلمناها من الرواة الذين تشبعوا من معاني السيرة الهلالية بكل تفاصيلها، وعندما بدأت الذاكرة تضعف والمجتمع ينفر احتفظ بالجزء الذي وإن ضاع كل شيء يجب أن يبقى.

— إن ما تبقى من السيرة الهلالية في منطقة الشرق حسد صراع الإنسان لأجل البقاء فكان هو موضوع القيمة في كلا القصتين غير أن الوسيلة اختلفت فكانت بالنسبة "لذباب الهلالي" نابعة من قدرات ذاتية تتعلق بالذكاء والشجاعة، أما "أحمد الهلالي" فاستعان — إضافة إلى عقله — بأدوات خارقة وهي الفرس. — إن ولوج نص بهذا العمق وهذه الكثافة لا يتأتى بحصره في خانة التاريخ، أو تقزميه في زاوية الفلكلور، بل يتطلب إنصافا وبحنا ودراسة أوسع وأعمق وهذا ما يجب أن يسعى إليه الدارسون لاحقا.

8 - الهوامش:

1. جمال الدين بن منظور، (1997)، لسان العرب، مادة (س، ي، ر)، دار الخيل، بيروت، مج3، ط1، ص378.
2. ينظر: عبد الله إبراهيم، (2000)، السردية العربية — بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي —، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، ص143.
3. ينظر: محمد القاضي وآخرون، (2010)، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، ص263.
4. محفوظ كحوال، (2007)، الأجناس الأدبية الثرية والشعرية، دار للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ص76.
5. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، (1993)، الفلكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، المكتبة الجامعية الحديثة، دب، ط1، ص97.
6. ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
7. ينظر: ثناء الوجود، (1988)، بين الظاهر بيبس والهلالية قراءة في المنهج، مجلة الفنون الشعبية، ع35، ص34.
8. بنظر: عبد الحميد بويوي، (2007)، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة للنشر، دب، ط1، ص58.
9. وليد بن طالب، (2010)، سيرة بني هلال: دراسة سردية، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري قسنطينة، ص06.
10. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

11. ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
12. عبد الحميد بورايو، الأدب الشّعي الجزائري، ص120.
13. ينظر: مصطفى أوضيف، (1980)، القبائل العربية في المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، ص 59
14. 60 وما يليها.
15. ينظر: وليد بن طالب، سيرة بني هلال: دراسة سردية، ص07.
16. ينظر: روزلين ليلي قريش، (1988)، من مقدمة كتاب بنو هلال سيرة بنو هلال 2، موقع النّشر، ص04.
17. ينظر: المرجع نفسه، ص06.
18. ينظر: المرجع نفسه، ص07.
19. ينظر: لعمرى زيداني، راوي شعبي، من مواليد 1945، من أصول مجانية مقيم في مقر سكنه.
20. ينظر: سعيد يقطين، (1997)، قال الرّاوي، بنيات الحكاية في السّيرة الشّعبية، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، ص91.
21. ينظر: أحمد زغب، (2008)، الأدب الشّعي الدّرس والتّطبيق، مزار للطّباعة، الوادي، ط1، ص08.
22. ينظر: المرجع نفسه، ص09.
23. ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
24. ينظر: وليد بن طالب، سيرة بني هلال: دراسة سردية، ص10.
25. ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

9. قائمة المراجع:

- 1_ أحمد زغب، (2008)، الأدب الشّعي الدّرس والتّطبيق، مزار للطّباعة، الوادي، ط1.
- 2_ ثناء الوجود، (1988)، بين الظّاهر بيبرس والهلالية قراءة في المنهج، مجلة الفنون الشّعبية، ع35.
- 3_ جمال الدّين بن منظور، (1997)، لسان العرب، مادة (س،ي،ر)، دار الجيل، بيروت، مج3، ط1.
- 4_ حسين عبد الحميد أحمد رشوان، (1993)، الفلكلور والفنون الشّعبية من منظور علم الاجتماع، المكتبة الجامعية الحديثة، دب، دط.
- 5_ روزلين ليلي قريش، (1988)، من مقدمة كتاب بنو هلال سيرة بنو هلال 2، موقع النّشر.
- 6_ سعيد يقطين، (1997)، قال الرّاوي، بنيات الحكاية في السّيرة الشّعبية، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، ط1.

- 7_ عبد الحميد بورايو، (2007)، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة للنشر، دب، دط.
- 8_ عبد الله إبراهيم، (2000)، السردية العربيّة _ بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي _، المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، ط2.
- 9_ محفوظ كحوال، (2007)، الأجناس الأدبية الثّرية والشّعريّة، دار للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط.
- 10_ محمد القاضي وآخرون، (2010)، معجم السّرديات، دار محمد علي للنّشر، تونس، ط1.
- 11_ مصطفى أوضيف، (1980)، القبائل العربيّة في المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط.
- 12_ وليد بن طالب، (2010)، سيرة بني هلال: دراسة سردية، رسالة ماجستير، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب واللّغات، جامعة منتوري قسنطينة.